مجلة الرائد

العدد : ٢٣٢ الموافق في رمضان ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/١٢ ميلادي

عنوان المقال : المؤسسات الإسلامية في الغرب والتواصل مع المجتمعات المحلية –٢–	الكاتب : د. نديم عطا إلياس

ثانياً : واقع المسلمين في الغرب

نود - في هذه العجالة - أن نلفت النظر إلى بعض الجوانب المهمة واللازمة لمتابعة سياق حديثنا عن تواصل المؤسسات الإسلامية مع المجتمعات المحلية ، مركّزين على النموذج الألماني بحكم التخصص والمعايشة .

١- البعد التاريخي :

تحتفظ الذاكرة التاريخية الأوروبية بصور سلبية من علاقتها بالعالم الإسلامي ، منها قرون الحكم الإسلامي للأندلس وغرب فرنسا ، ومنها امتداد الخلافة العثمانية إلى البلقان ومحاصرة العاصمة الأوروبية فيينا . ولا تخلو الذاكرة التاريخية الأوروبية من صور إيجابية منها قرون التعايش الإيجابي في الأندلس والبلقان ، والتبادل الحضاري والثقافي الذي بدأ منذ عهد هارون الرشيد والقيصر كارل الأكبر ، والإنجازات العلمية الهائلة التي ورثتها الحضارة الإسلامية للحضارة الغربية ، ولا تخلو الذاكرة من تأنيب الضمير من جراء الظلم والتعسف والجور الذي ألحقته أوروبا بالعالم الإسلامي من خلال الحروب الصليبية والتنصير والاستعمار .

وقد بدأ الوجود الإسلامي المعاصر في أوروبا أواخر فترة الاستعمار ، حيث استقرت جاليات إسلامية محدودة العدد في فرنسا وبريطانيا ، بالإضافة إلى وجود الشعوب الأوروبية المسلمة في البلقان ، ووجود عدد محدود من الأوروبيين في الدول الأخرى الذين اعتنقوا الإسلام .

ونمى هذا العدد في أوائل الستينات بنزوح عدد من الطلبة والمثقفين إلى أوروبا، قاموا بإنشاء المراكز الثقافية المشهورة . وازداد عدد المسلمين بشكل مفاجئ في ألمانيا جراء اتفاقيات الاستقدام التي عقدتها الحكومة الألمانية مع تركيا والمغرب وتونس في نهاية الستينيات . وشهدت دول أوروبية أخرى وضعاً مشابهاً لذلك مثل بلجيكا وفرنسا وهولندا .

٢- الإطار القانوني :

تنص دساتير الدول الأوروبية على حماية الحقوق الأساسية المنصوص عليها في الإعلان العام لحقوق الإنسان ، والمتضمنة لحرية الدين والمعتقد وحق ممارسة الدين ، وتنص مقدمة النظام الأساسي

لألمانيا الاتحادية أن الشعب الألماني وضع هذا النظام الأساسي .. " إيماناً بمسؤوليته أمام اللّه وأمام الإنسان " وتنص المادة الرابعة منه على أن " حرية العقيدة والضمير وحرية الدين والمعتقد لا تُمس " وتمنع المادة الثالثة أن .. " يحابى أحد أو يضار بسبب جنسه أو أصله أو عرقه أو لغته أو منشئه أو عقيدته أو تصوره الديني والسياسي " ولا يقصر النظام الأساسي هذه الحقوق على المواطنين الألمان فهي تشمل كل إنسان بغض النظر عن جنسيته ومكان إقامته ، كما لا ترتبط هذه الحقوق بالمؤسسات دون الأفراد أو بالطائفة النصرانية دون سواها ، بل تؤكد المادة « ١٣٧ » من دستور فايمار المضافة إلى النظام الأساسي أن مفهوم الطائفة الدينية يشمل " كل رابطة تقوم برعاية الشؤون الجماعية لمعتقد ديني " .

لذا فإن القانون الألماني لا يضع قواعد " الاعتراف " بدين ما ، وإنما يعتبر حمايته للحرية الدينية احتراماً واعترافاً بكل دين أياً كان جوهره ، ويضع قواعد لإعطاء الطوائف الدينية صفة " مؤسسة الحق العام " التي تخولها من الإفادة من مميزات اجتماعية وقانونية معينة . وقد حصل على هذه الصفة أكثر من خمسين طائفة ، دون أن يكون من بينها أي رابطة إسلامية .

٣- المحيط الاجتماعي :

يعيش في أوروبا أكثر من (٣٣) مليون مسلم ، منهم حوالي (٤) ملايين في فرنسا ومليونان في بريطانيا ، وزاد عدد المسلمين في ألمانيا حسب تقدير المفوضة الاتحادية لشؤون الأجانب عن (٣,٢) مليون ، ويشكل الأتراك أكثر من ثلثي عددهم ، بينما يصل عدد العرب منهم إلى حوالي (٢٨٠) ألفاً [١] .

ويزيد عدد المسلمين من أصل ألماني على (١٠٠) ألف مسلم بينما يصل مجموع من يحمل جنسية ألمانية من المسلمين إلى أكثر من نصف مليون ، وهذا العدد في تزايد مطّرد نظراً لتسهيل إجراءات الحصول على الجنسية . وتعتبر الجالية المسلمة في ألمانيا جالية مستقرة منذ ثلاثة أجيال [٢] ، وقد ولد أكثر من ٨٠% من المسلمين ممن هم دون الثامنة عشرة في ألمانيا ونشأوا بها ، وبلغت نسبة العازمين على البقاء الدائم في ألمانيا أكثر من ٨٠% من مجموع المسلمين .

ويعتبر أبناء الجيل الثاني من المسلمين في الغرب مصدر أمل كبير لتحسين أوضاع الجاليات

المقيمة فيه ، نظراً لمعرفتهم بلغة البلاد وطبيعتها ونمط تفكيرها ، ونظراً لتجنسهم ومطالبتهم بحقوقهم الوطنية ، إلا أن نشأة كثير منهم ضمن أسر قروية الأصل محدودة الثقافة والمعرفة الإسلامية جعل نسبة التأهيل الجامعي والمهني بينهم أقل بكثير من الشريحة الاجتماعية العامة ، وتزيد نسبة من ينهي منهم مرحلة التعليم دون مؤهل على ٤٠% مما يؤدي إلى زيادة نسبة البطالة والجريمة والإدمان بينهم ؛ وقد أدى ذلك إلى تفاقم مشكلات اجتماعية أخرى كما يوضح الشكل الآتي (أ) :

عدم التأهل + البطالة + الجريمة والإدمان

⇩

تقوقع اجتماعي + تقوقع فكري + تطرف عرقي وديني

⇩

صراع داخلي + مجابهة خارجية

كما يشكل المسلمون الألمان بارقة أمل أخرى لتمكّنهم من التأثير الاجتماعي والسياسي ، إضافة إلى نشأة شريحة عريضة من رجال الأعمال وأصحاب الشركات التي يزيد عددها حالياً على (٥٠) ألف شركة ، كما أثبت عدد كبير من النساء المسلمات الملتزمات وجودهن في المجتمع في مجال التدريس الجامعي والتعليم والتأليف وإدارة الجمعيات والمؤسسات [٣] .

٤- المسلمون ومؤسساتهم :

يقدر عدد المساجد في ألمانيا بحوالي (١٦٠٠) مسجد وتصل تقديرات البعض بهذا العدد إلى حوالي (٢٠٠٠) مسجد ، يضاف إلى ذلك عدة مئات من الجمعيات التخصصية والمؤسسات الفرعية ، فيصل مجموع المساجد والمؤسسات إلى حوالي (٢٥٠٠) مؤسسة ومسجد ، وهذا العدد وإن بدا كبيراً لأول وهلة إلا أنه دون الحد الأدنى المطلوب للقيام بالخدمات الاجتماعية والتربوية اللازمة للجالية

المسلمة ، وإذا قورن عدد المساجد بعدد المعابد للطوائف الأخرى ، وروعي أن تلك الطوائف تملك بالإضافة إلى ذلك عشرات الألوف من المؤسسات الاجتماعية والتعليمية ، فإننا ندرك الضرورة الملحة لتنمية مستوى المؤسسات الإسلامية في الغرب وزيادة عددها كما في الشكل الآتي (ب) :

الطائفة	عددها	معابدها/ مساجدها	معبد/مسجد لكل (..) شخص	مؤسسات أخرى
البروتستانت	27.922.000	١٨,٢٤٣	١,٥٣٠	٢٠,٠٠٠
اليهود	٦١,٢٠٣	٩٨	٦٢٤	٢٠٠
المسلمون	٣,٢٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠	٢,٠٠٠	٥٠٠

ومما يلفت النظر أنه لا يوجد سوى مدرستين نظاميتين إسلاميتين في ميونخ وبرلين ، بالإضافة إلى أكاديمية الملك فهد في بون وبرلين ، وروضة أطفال إسلامية واحدة ، مقابل آلاف المدارس التابعة للكنائس والطوائف الأخرى ، وتعجز المساجد بما تقدم من تعليم للأطفال خارج الدوام المدرسي من تصحيح المعادلة المختلفة المشار إليها في الشكل (أ) سابقاً .

يتبع معظم المساجد لروابط اتحادية نشأت نشأة تاريخية على مقاييس اللغة والمنشأ ، منها روابط تركية وألبانية وبوسنية وعربية وإيرانية ، كما يتبع بعضها اتحادات الطلبة والعمال ، ويتبع قليل منها لاتحادات التخصصات التربوية والاجتماعية وبعض الطرق الصوفية .

وطرأ تطور إيجابي كبير في وسط الجالية الإسلامية في ألمانيا في الثمانينيات حيث أمكن توحيد معظم الروابط والمساجد ضمن مجالس عليا ، وكانت نشأة " المجلس الأعلى للمسلمين في ألمانيا " عام ١٩٨٦م الذي يضم حالياً (١٩) رابطة إسلامية يتبعها أكثر من خمسمائة مسجد من مساجد الأتراك

والألمان والألبان والبوسنيين والعرب والإيرانيين ، بالإضافة إلى المراكز الإسلامية في آخن وميونخ وهامبورج واتحادات الطلبة والعمال وجمعيات المربين الاجتماعيين .

ونشأ على غرار ذلك " مجلس الإسلام " الذي يضم بدوره عدداً كبيراً من مساجد الأتراك في الدرجة الأولى بالإضافة إلى روابط من جنسيات أخرى ، كما أمكن التنسيق والتعاون بين المجلسين في القضايا المشتركة على المستوى الاتحادي كقضية الذبح الشرعي وإدخال مادة التعليم الإسلامي في المدارس النظامية وتوحيد الأهلة والمواقيت .

ثالثاً : الانفتاح .. نماذج معاصرة وأهداف مستقبلية :

الانفتاح على مجتمع غير مسلم والتواصل مع مؤسساته وأفراده أمر شاق وطريق وعر طويل ، ومن مستلزمات التمسك بهذا الأسلوب والمحافظة على وسائله والصبر على مشاقه : المعرفة الموضوعية المتجردة من كل خلفية عاطفية نفسية بسلبياته وإيجابياته ، والمعرفة العميقة بسلبيات التخلي عنه والتقوقع خارج المجتمع وإيجابيات ذلك ، ولا بد من تحديد أهداف التواصل ، ووضع تصور معاصر مستقبلي لوسائله ، واقتراح برامجه ومجالاته ، والمعرفة بحدوده وضوابطه .

ويتبين لنا من خلال الشكلين (ج) و (د) بعض الدوافع الداعية للانغلاق والتقوقع ، وتلك الداعية للانفتاح والتواصل ، وإيجابيات كل منها وسلبياته ، ونتائج إتباع أسلوب التواصل ومحصلته ونتائج إتباع سبيل التقوقع وعواقبه :

شكل (ج)

التواصل والانفتاح .. إيجابياته وسلبياته

إيجابيات		سلبيات
⇩		⇩
نمو المناعة الذاتية		
نمو التجربة والخبرة	التواصل	التعرض للمغريات
القيام بواجب الدعوة	والانفتاح	التعرض للتحديات
نمو شبكة العلاقات		الانشغال بأهداف جزئية
الإفادة من إمكانات الآخرين		

النتيجة :

١- المحافظة على الجيل الأول واحتمال أكبر للمحافظة على الأجيال المقبلة .

٢- نمو بطئ ولكنه قائم على قواعد أكثر ثباتاً وضماناً .

٣- اهتمام أكبر بالدعوة يؤدي إلى :

- زيادة فعلية للمسلمين .
- تفهم أكبر لحاجاتهم .
- قفل الطريق على تشويه الأعداء لهم .

٤- إيجاد الجو المناسب المتفهم لاستمرار وجودهم ونمو إمكانات مؤسساته .

المحصلة : نمو وقوة على المدى البعيد.

الشكل (د)

التقوقـــع .. إيجابيـــاتـــه وســـلبيـــاتـــه

إيجابيـــات		ســـلبيـــات
⇩		⇩
تجنـــب المغريـــــــات		ضعف المناعـة الذاتيـة
نمـــو الوقـايـــة الذاتيـــة	التقوقـــــع	ضعف التجربـة والخبـرة
تجنـب التحـديـــــات		التقصير في حق الدعـوة
الالتفـات إلى الأوليـــات		ضعف شـبكة العلاقات

النتيجة :

١- المحافظة على الجيل الأول بالمواصفات الآتية :

- ضعف المناعة .
- قلة التجربة .
- قلة الأنصار .

٢- نمو عددي بنشأة الأجيال المقبلة بالمواصفات الآتية :

- مناعة أشد ضعفاً .
- أقل خبرة وتجربة .

- أقل صلة بالمجتمع .

٣- نمو محدود للإمكانات .

٤- النتيجتان الأولى والثانية تؤديان إلى أحد البدائل الآتية :

- الانفتاح .
- أو الذوبان .
- أو التصفية .

المحصلة : قلة وضعف

الهوامش

(١) بعض الأرقام بالألوف حسب تقديرات عام ٢٠٠٠م : ٨١ مغاربة ، ٥٤ لبنانيون ، ٥١ عراقيون ، ٢٤ سوريون ، ٢٤ تونسيون ، ١٧ مصريون ، ١١ أردنيون ، ويقدر عدد الإيرانيين بحوالي (١٢٠) ألفاً ، وعدد البوسنيين بحوالي (٢٠٠) ألفاً .

(٢) يقيم ٦٦% من المسلمين منذ أكثر من عشر سنوات ، ويقيم ٣٠% منهم منذ أكثر من عشرين سنة في ألمانيا .

(٣) توقع الكاتب في دراسة مستقبلية قدمها للمركز الإسلامي في آخر عام ١٩٩٩م أن يصل عدد المسلمين عام ٢٠١٠م إلى حوالي (٥) ملايين ، يحمل منهم (١,٩) مليون مسلم الجنسية الألمانية ، بينما ينقص عدد سكان ألمانيا من (٨٠) مليون إلى (٧٢) مليون ، وبذلك تتغير نسبة المسلمين في ألمانيا من ٤% إلى حوالي ٧% من مجموع السكان .